

تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ الْمَفِيدِ

للامام تقي الدين أحمد بن علي المقرئ

المتوفى سنة ٨٥٤ هجرية

علق عليه وشرح أصوله الأستاذ

طه محمد الزبي

من علماء الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

﴿ وبعد ﴾ فهذا الكتاب ، تجريد التوحيد المفيد ، من أنفس الكتب في تخلص التوحيد مما شابه من البدع والخرافات التي قد تذهب بأصل التوحيد وتؤدي بالمبتدع إلى الكفر أو إلى عدم كمال توحيده لله جل وعز ، ومعنى تجريد التوحيد . تخلص التوحيد وجعله مجردا مما يشوبه من عوامل الإشراف في محبة الله وربوبيته ، وقد أفصح الشيخ المقرئ عن كل ما يهيم المسلم من أمر التوحيد وبين الطريق المستقيم التي ينبغي أن يسلكها الموحد وتعرض للشبه الكثيرة التي تحول بأذهان الناس وتفسد عليهم أمر دينهم ، وبين كثيراً من أفعال الناس المنافية للحق والتي جرم إليها اتباع أهوائهم من محاولة تشبيه الخالق بالخلق والتقرب إليه ببعض خلقه من الأحياء والاموات ، وذكر كثيراً من مذاهب الفرق الإسلامية التي اختلط عليها النهج القويم في الدين وبين مبعث ضلالها ، وفساد اعتقادها وعملها ، ورسم المحجة الواضحة وبين معالمها وأوضح للسالك فيها منعطفاتها ، وأضاء ظلماتها بالدليل الملمزم والبرهان الساطع ، ومع أنه عاش قبل زماننا بنحو خمس مائة سنة فكانه يعيش بين ظهرانينا ،

فهو يسرد أقوال المبتدعين في زمانه فإذا هي مطابقة لأقوال الجبهة
والخرفين وعباد الخلق وأحلاس القبور في زماننا ، مما يظهر أن الفساد
قديم ، وأن الداء قد دخل جسم الأمة الإسلامية وأخذت ميكروباته
تنهش فيه حتى استفحل وعزدواؤه ، وأعتمد أن سبب استشراف هذا
الداء عدم التفات الحكومات الإسلامية إليه وانصرافها إلى أمور
السياسة وانغماسها في الدنيا ، حتى إن بعض الحكومات شجعت
اختلاف رعاياها ونصرت بعض طوائفها على بعض وهي تعلم أنها
تنصر الباطل وتحارب الحق ، فضلت وأضلت وابتعدت عن الله
وجانبت سبيله ، ولا يمكن علاج هذا الأمر إلا برجوع الحكومات
الإسلامية إلى الصواب والضرب على أيدي المبتدعين والخرفين
والمتكسبين بالدين ، فالتناس على دين ملوكهم ورؤسائهم وقد قال
الرسول ﷺ « إن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » فلا
بد من الاحتكام إلى القرآن والحديث ورد كل شيء إلى الله ورسوله
كما قال تعالى « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

فيجب الوقوف عند حدود الله ، واتباع سنة رسول الله حتى
تستعيد الأمة الإسلامية مجدها ، وتعود إلى سابق عهدها نسأل الله
أن يوفقنا إلى الاتباع وأن يمنحنا الابتداع وأن يوفق حكامنا إلى ما يحبه
ويرضاه إنه سميع الدعاء ؟

طه الزيني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين * والعاقبة للمتقين * وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين * وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذا كتاب جمّ الفوائد بديع الفرائد ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة سميته تجريد التوحيد المفيد والله أسأل العون على العمل به بمنه ،

إعلم أن الله سبحانه هو ربّ كل شيء ومالكه وإلهه : فالرب (١)

(١) يطلق الرب على السيد وعلى مالك الشيء وصاحبه ومصلحه ، والرب « بآل ، خاص بالله عز وجل ولا يطلق على غيره إلا نادرا وجمعه أرباب وربوب ؛ ومن إطلاق الرب بمعنى السيد ما ورد في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ، وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، أى عند سيدك وهو الملك ، ومن إطلاقه بمعنى المالك للشيء وصاحبه ، ما ورد على لسان عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ في قوله لأبرهة صاحب الفيل « أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فله رب يحميه ، أى أنا مالك الإبل والبيت له صاحب يقدر على حمايته منكم ، ومن إطلاق الرب على الله عز وجل ما ورد في قوله تعالى على لسان يوسف « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » . ويطلق الرب أيضا على المربي والمتكفل بمصالح الشخص ، ويقال

مصدر ربّ يَرْبُّ رَبًّا فهو رابٌّ : فعنى قوله تعالى (ربّ العالمين)
 رابّ العالمين فان الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده القائم
 بتربيتهم وإصلاحهم المتكفل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية
 وإصلاح دين ودنياه والإلهية ^(١) كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً
 مألوهاً ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والاختبات ^(٢) والتوبة
 والنذر ^(٣) والطاعة والطالب والتوكل ^(٤) ونحو هذه الأشياء فان التوحيد

= ربّ الصبي أى رباه حتى أدرك مثل ربّيته ، وقد بين الشيخ تقي الدين صاحب
 هذا الكتاب معنى التربية والتكفل بالمصالح بالنسبة لله سبحانه وتعالى .
 (١) يقال ألّه إلهه وألوهه وألوهية بمعنى عبد عبادة ، ومن ذلك لفظ
 الجلالة وهو الله أصله إله بوزن كتاب بمعنى مألوه أى معبود .
 (٢) الاختبات الخضوع لله وتسليم الأمر إليه .

(٣) النذر هو التزام فعل القربات وهو خاص بالله تعالى لا يجوز النذر
 لغيره ، فلا يجوز أن تقول لفلان على ذبح خروف للفقراء أو صيام يوم
 أو أيام ، أو حج بيت الله أو التصديق بكذا من النقود ، وإنما ذلك خاص
 بالله تعالى ، فتقول لله على كذا وكذا ومن الجاهل بالدين المأودى إلى الكفر
 إذا كان قائله يعتقد أن مايقول هو الدين ، قول العوام في هذه الأيام نذر
 على ياسيدى يابدوى إن شفى الله مريضى أو إن كسبت القضية أو إن قضيت
 حاجتى أن أزورك وأذبح عندك عجلاً أو خروفاً أو أوزع على جلساء
 مسجدك كذا وكذا من النقود أو الأشياء النافعة ، فيجب أن يمتنع
 الناس عن ذلك ويجعلوا النذر لله فقط ، فيقول القائل لله على كذا وكذا
 خالصاً لوجهه دون غيره .

(٤) يجب أن يكون التوكل وهو الاعتماد في تحقيق الأمور على الله
 وحده ومن الجاهل ما يقوله الناس في هذه الأيام مثل أنا معتمد على

حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى وهذا المقام يشمر التوكل وترك شكاية ^(١) الخلق وترك لومهم والرضا عن الله تعالى والتسليم لحكمه :

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى لعباده والتأله من عباده له سبحانه كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه عز وجل . واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى غير أن التوحيد له قشران ^(٢) . الأول أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ويسمى هذا

الله وعليك ، وأنا معتمد عليك بعد الله ، فيجب أن يكون الاعتماد على الله فقط .

(١) يريد الشيخ بترك الشكاية ترك ما يقوله قليل الرزق مثلاً من أنه يستحق الاتساع في الرزق لأنه صافي الضمير يحب الخير للناس ولا يفعل إلا الخير ، فالله أعلم به وبما يستحق ، وهذا اعتراض على فعل الله ولوم له على تدبيره ولا يليق بال مؤمن الحق ، بل يجب عليه التسليم والرضى كل الرضى بما قدر الله وقسمه ، ولكن عليه أن يأخذ في الأسباب التي توسع رزقه وتقضى مصالحه سواء جاءت بنتيجة أو لم تأت ، ولا بأس بالعمل والدأب والاجتهاد ، ولا يعترض بعد ذلك على المقادير .

(٢) القشر هو ما يغطي اللباب ، ففي الفاكهة مثلاً القشر يغطي الثمرة والقشر قليل الفائدة والثمرة هي كل المطلوب ، فشبّه الشيخ المقرري قول . لا إله إلا الله ، وموافقة القلب على هذا القول . بالقشر قليل الفائدة بالنسبة إلى أب التوحيد ، وشبه رؤية الأمور كلها من الله وعدم الالتفات إلى غيره والإقرار له بالعبادة ، بالثمرة . وهو تشبيه جميل أظهر المعنى الذي أراده غاية الظهور .

القول توحيداً وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المناق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني أن لا يكون في القلب مخالفة ولا انكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به وهذا هو توحيد عامة الناس . ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط وأن يعبد سبحانه عبادة يفرد بها ولا يعبد غيره : ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده : قال الله تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبد وإنما عبد هواه وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل : وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى : ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه : وهذا التوحيد مقام الصديقين ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض والقائم بمصالح العالم كله وإنما أنكروا توحيد الإلهية ^(١) والمحبة كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فلما سواوا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين

(١) أى إفراده بالعبادة والحب والخوف والرجاء والنذر والتوكل وغير ذلك مما تقدم .

كما قال الله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ^(١)) وقد علم الله
سبحانه وتعالى عباده كيفية مبانة الشرك في توحيد الالهية وانه تعالى
حقيق بإفراده وليا ^(٢) وحكاما وربا فقال تعالى (قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا)
وقال (أَغْيَرَ اللَّهُ ابْتِغَى حَكْمًا) وقال (قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنَى رَبًّا) فلا
ولى ولا حكم ولا رب إلا الله الذى من عدل به غيره فقد أشرك في
ألوهيته ولو وحد ربوبيته فتوحيد الربوبية هو الذى اجتمعت فيه
الخلايق مؤمنها وكافرها وتوحيد الالهية مفرق الطرق بين المؤمنين
والمشركين ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله ولو قال لارب إلا
الله اجزأه عند المحققين ه فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد
ولهذا كان أصل الله الإله كما هو قول سيديويه وهو الصحيح وهو قول
جمهور أصحابه إلا من شذ منهم :

وبهذا الاعتبار الذى قررنا به الإله وأنه المحبوب لاجتماع صفات
الكمال فيه كان الله هو الاسم الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات
العليا وهو الذى ينكره المشركون ويحتج الرب سبحانه وتعالى عليهم
بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى (قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) أى يسوون غير ربهم بربهم في قصده في الأمور وحبه .

(٢) أى يتولاه الناس في أمورهم كلها ويحكمونه في شئونهم وفيما
شجر بينهم ، ويعتقدون أنه خالقهم ورازقهم وجالب الخير لهم ومانع
الضر عنهم .

وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلَ اللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْسِبُوا شَجَرَهَا إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدُلُونَ
وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجبل قال عقيبها إله مع الله فابان
سبحانه وتعالى بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد
الالهية لا الربوبية، على أن منهم من اشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك
إن شاء الله تعالى : وبالجملة فهو تعالى محتج على منكري الإلهية بإثباتهم
الربوبية : والمملك هو الأمر الناهي الذي لا يخلق خلقا بمقتضى ربوبيته
ويتركهم سدى معطلين لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون
فإن المملك هو الأمر الناهي المعطى المانع الضار النافع المثيب المعاقب
ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالآسماء الحسنى
الثلاثة الرب والمملك والإله ، فانه لما قال (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) كان
فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم فبقى أن يقال لما خلقهم هل كفهم
وأمرهم ونهاهم قيل نعم فجاء (مَلِكِ النَّاسِ) فثبت الخلق والأمر
ألا له الخلق والأمر فلما قيل ذلك قيل فاذا كان رباً موجداً وملكاً مكلماً
فهل يحب ويرغب إليه ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر قيل
(إِلَهِ النَّاسِ) أى مألوههم ومحبوبهم الذى لا يتوجه العبد المخلوق
المكلف العابد لإله فجاءت الإلهية خاتمة وغاية وما قبلها كالتوطئة لها
وهاتان السورتان أعظم عموماً (١) في القرآن وجاءت الاستعاذة بهما

(١) يقال عاذ به يعوذ عوداً وعباداً بمعنى لازمه ولجأ إليه واستجار به ،

وقت الحاجة إلى ذلك وهو حين سحر النبي ﷺ وخيل إليه أنه يفعل
الشيء ﷺ وما فعله وأقام على ذلك أربعين يوماً كما في الصحيح (١)

= ويقال استعاذ يستعيز استعاذة أى طلب العوذ ، والعوذة مصدر عاذ يعوذ
مراد به المرة من اللجوء والاستجارة .

(١) هو في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، سحر النبي ﷺ رجل
من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه
كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو
عندي دعا ودعاهم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفناني فيما استفتيته فيه أتاني
وجلان فقعده أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما
وجع الرجل فقال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء
قال ؟ في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر قال وأين هو قال في بئر ذروان
فأتانا رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها
نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلا رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا
استخرجته قال قد عافاني الله فسكرت أن أثير على الناس فيه شراً فأمر بها
فدفنت ، هذا لفظ البخاري . والمطبوب ، الممرض وطبه أي أمرضه
بسبب السحر ؛ والمشط آلة تسريح الشعر ، والمشاطة ما يتساقط من الشعر
عند التسريح وطلع النخلة الذكر هو المسمى عند الناس في أيامنا هذا والذكر
وقد جمع لبيد بن الأعصم هذه الأشياء وعقد عليها عقداً ، وعند كل عقدة
يقول شيئاً من كلام السحر يريد أن يمرض الرسول ﷺ ، وفي زماننا
هذا بقية من السحر ، يفرق به الساحر بين المراء وزوجه وبين الأخ وأخيه
وهذا من الكبرائر تجب محاربة من الناس ومن الحكومة حتى يبتعد الأشرار
عنه ويأمن الناس في حياتهم . وقد اختلف العلماء في سحر النبي ﷺ قديماً
وحديثاً فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ووقوعه وأنه لا يخالف العصمة

فلا يتأني الحديث قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) لأن سحر النبي ﷺ كان من جنس ما كان يعتريه ﷺ عليه وآله وسلم من الأسقام والأوجاع وهو مرض من الأمراض وإصابته به كإصابته بالسقم لافرق بينهما يدل له قوله ﷺ في آخر الحديث « قد عافاني الله » قال بن القيم في الهدى قال انقضى عياض والسحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كإفراز الأمراض بما لا ينكر ولا يقدح في نبوته وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه لقيام الدليل والاجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طرده عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها ولا فضّل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمور ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان : فكان غاية هذا السحر فيه ﷺ إنما هو في جسده وظاهر جوارحه لا في عقله وقلبه ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيل إليه بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له : ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض : وقد ذهب طائفة من المتقدمين إلى أنه لا يجوز ذلك عليه ﷺ وإن هذا انقص في حقه ﷺ وعيب وهو يتأني قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ومن المتأخرين الشيخ محمد عبده المصري وقد أطنب القول في رد سحر النبي ﷺ ونفيه في تفسيره جزء عم : وحاصل كلامه فيه : ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح وهو ما يصدق قول المشركين فيه (ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) وليس المسحور عندهم إلا من خوطب في عقله وخيل إليه أن شيئاً يقع وهو لا يقع فيخيل إليه أنه يوحى إليه ولا يوحى إليه : والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ فهو الذي

وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة فانزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية فالتحت بكل آية عقدة وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن (١)

= يجب الاعتقاد بما يثبت به وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول بآيات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه وبخهم على زعمهم هذا فإذا هو ليس مسحور قطعاً : وأما الحديث فعلى فرض صحته آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد : وعصمة النبي ﷺ في تأييد السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة : وعلى أي حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبديل العقل فانه إذا خولط النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عقله كازعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه وأن شيئاً نزل عليه ولم ينزل عليه والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان اه : والمسألة في ذاتها محل بحث وقد ترك كثير من المنتسبين إلى المذاهب الأخذ ببعض الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري أو مسلم أو غيرهما لقول إمام لهم في المذاهب أو مخالفتها القياس فما هنا أولى لدفع شبه الملحدين وغيرهم وموافقة للقرآن القطعي في ذلك : وإذا علمت هذا تعلم أن ما ذهب إليه المصنف هو قول الجمهور : والله أعلم .

(١) هو قول القاري . قبل قراءة القرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وقد علم الله تعالى رسوله الاستعاذة بقوله ، فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلم يقل فاستعذ بالرب ولا استعذ بملك الناس .

باسمه الاله وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه ومناجاة العبد لهذا الاله الكامل ذى الاسماء الحسنى والصفات العليا المرغوب اليه في أن يعيذ^(١) عبده الذى يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه ثم استحب التعليق^(٢) باسم الاله فى جميع المواطن الذى يقال فيها (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) لأن اسم الله تعالى هو الغاية للأسماء ولهذا كان كل اسم بعده لا يتعرف إلا به فتقول الله هو السلام المؤمن المهيمن فالجلالة تعرف غيرها وغيرها لا يعرفها : والذين أشركوا به تعالى فى الربوبية منهم من أثبت معه خالقا آخرون لم يقولوا إنه إله مكافئ له وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية^(٣) : وربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوالهم لأنها تقتضى ربوبيته^(٤) لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال : وحقيقة قول القدرية المجوسية^(٥) أنه تعالى ليس ربا لأفعال الحيوان^(٦) ولا تتناولها ربوبيته إذ كيف يتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيدته وخلقه .

(١) يحيره ويمنعه من الشيطان .

(٢) التعليق . أى ربط الاستعاذة باسم الله فى قوله تعالى « بالله » .

(٣) القدرية هم الذين يقولون إن العبد يخلق أفعال نفسه وهم قسم من المعتزلة (٤) أى أنه خالق لجميع ما فى العالم من الذوات الخ

(٥) هذا كناية عن أن المعتزلة مجوس هذه الأمة ، أى كالمجوس فى اشراكهم العبد لله فى خلق أفعاله كما جعل المجوس إلهين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر خالق للشر .

(٦) المراد بالحيوان الانسان وغيره بما فيه حياة وله أفعال .

وشرك الأمم كله نوعان شرك في الالهية وشرك في الربوبية فالشرك في الالهية والعبادة هو الغالب على أهل الاشراك وهو شرك عبادة الأصنام وعباد الملائكة وعباد الجن وعباد المشايخ (١) والصالحين الأحياء والأموات الذين قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (٢) ويشفعوا لنا عنده وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة كما هو المعبود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته : والكتب الالهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله تعالى وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم وما أهلك الله تعالى (من أهلك) من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله : وأصله الشرك في محبة الله قال تعالى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فأخبر سبحانه وتعالى أنه من أحب مع الله شيئا غيره كما يحبه فقد اتخذ ندا (٣) من دونه وهذا على أصح

(١) يريد الشيخ بعباد المشايخ والصالحين . الذين يعتقدون أن الأولياء ومن يدانيهم في الصلاح يستطيعون أن يفعلوا للعبد شيئا فيتقربون إلى الله بسبب تقربهم إلى الصالحين سواء كانوا أحياء أو أمواتا .

(٢) الزلفى التقريب ، وهذا قول أهل الجاهلية من عبادة الأصنام وأصل الأصنام تماثيل لناس صالحين في الزمان الماضي ، اتخذها أهل الشرك تذكارا لهم يذكرهم بأصحابها فصاروا يحجون إليها ويقدمون لها القرابين والهدايا واعتقدوا أنها تنفعهم وتضرهم على مدى الأيام .

(٣) الند هو النظير والمعادل . وقد قال رسول الله ﷺ ما معناه إن من علامات المؤمن الخالص أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار .

القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ يَعْدِلُونَ) والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسبون بينه وبين غيره في الحب والعبادة : وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَافِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم قطعاً أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم فاهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم وأن الأرض ومن فيها لله وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم : وأنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يحير ولا يحار (١) عليه : وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه وذل له كما يجب لله تعالى ويخافه ويرجوه : فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله فكيف بمن كان غير الله آثر عنده وأحب إليه وأخوف عنده وهو في مرضاته أشد سعياً منه في مرضاة الله فإذا كان المسوى بين الله وبين غيره في ذلك مشركاً فالظن بهذا فعياذا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها (٢) وهو يظن أنه مسلم موحد فهذا أحد أنواع الشرك : والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون

(١) أى لا يقدر أحد أن يحير أحداً من الله إلا بإذنه بأن يقبل الله شفاعته وذلك خاص بالرسول ﷺ .

(٢) قشر الحية هو جلدها والحية تبدل جلدها فتخرج من الجلد القديم عند تمام الجلد الجديد .

وحده هو المألوه يبطل هذا الشرك ويدحض حجج أهله وهي أكثر من أن يحيط بها إلا الله بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده وكذلك كل ما أمر به فخلقه وأمره وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من القوى شاهد بأنه الله الذى لا إله إلا هو وأن كل معبود سواه باطل وأنه هو الحق المبين تقديس وتعالى :

وواجباً كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكه وتسكينه أبداً شاهد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والنوع الثانى من الشرك ، الشرك به تعالى فى الربوبية كشرك من جعل معه خالقا آخر كالجنوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم وبين أحدهما خالق الخير يقولون له بلسان الفارسية يزدان ^(١) والآخر خالق الشر ويقولون له بلسانهم أهر من : وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط وإن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس وإن مصدر هذا العالم عن العقل ^(٢) الفعال فهو رب كل ماتحته ومدبره وهذا شر من شرك عباد الأصنام والجنوس والنصارى وهو أخبث شرك فى العالم إذ يتضمن من

(١) وقوله يزدان معناه الله : وقوله أهر من أى الشيطان .

(٢) يقول الفلاسفة ان الله خلق عقولا عشرة أى خلق أشياء عشرة يسمى أولها العقل الأول والعقل الأول أثر فى غيره من العقول وهذه العقول العشرة تشمل أمور العالم كله خيرها وشرها وتؤثر فيها مع أنها ناشئة عن الله تعالى

التعطيل^(١) وجحد الالهية والربوبية واستناد الخلق إلى غيره سبحانه وتعالى مالم يتضمنه شرك أمة من الأمم ؛ وشرك القدريّة مختصر^(٢) من هذا وباب يدخل منه اليه ولهذا شبههم الصحابة رضي الله عنهم بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعاً أنهم مجوس هذه الأمة^(٣) وكثيراً ما يجتمع

(١) التعطيل : أى تعطيل صفات الله تعالى عن الاشتغال بالتأثير في المخلوقات على هذا المذهب لأن العقول هي التي تؤثر في العالم بعد خلقها فكان الله لا يفعل شيئاً وصفاته باقية بدون عمل .

(٢) لأن العبد إذا خلق فعله كانت قدرة الله في ذلك الوقت معطلة عن التأثير في أفعاله

(٣) لفظ رواية ابن عمر عند أبي داود وغيره ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال القدريّة مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم ، قال الخطابي في شرح هذا الحديث في المعالم إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبيهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر فعل الظلمة وكذلك القدريّة يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر لا يكون شئ منهما إلا بمشيئته وخلق الشر شرافى الحكمة كخلق الخير خيراً فإن الأمرين جميعاً مضافان إليه خلقاً وإيجاداً وإلى الفاعلين لهما فعلاً واكتساباً اه : وقال الحافظ المنذرى هذا منقطع أبي حازم سلية بن دينار لم يسمع من ابن عمر وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ليس منها شئ . ثبت اه : وقد تعقبه الحافظ ابن حجر وقال هذا الحديث حسنه الترمذى وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح : والله أعلم .

الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر والقرآن الكريم بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك كقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فانه ينفي^(١) شرك المحبة والالهية وقوله (وَلِإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فانه ينفي شرك الخلق والربوبية : فتضمنت هذه الآية تجريد^(٢) التوحيد لرب العالمين في العبادة وانه لا يجوز إشراك غيره معه لافي الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات فالشرك به في الأفعال كالسجود لغيره سبحانه وتعالى : والطواف بغير بيته المحرم : وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها^(٣) وقد لعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من اتخذ

(١) انما استغيد نبي الإشراك بالله من قوله تعالى «إياك نعبد» لأن تقديم المفعول وهو إياك على الفعل يفيد الحصر . أى نعبدك وحدك ولا نعبد غيرك كما تنادى أحد الناس فيفهم أن النداء لغيره فتقول له «إياك ناديت» أى ناديتك أنت لاغيرك .

وكذلك نستفيد تخصيص الاستعانة بالله من تقديم المفعول وهو إياك
(٢) تخليصه من شائبة توحيد غيره .

(٣) أخرج أبو نعيم في الحلية من حديث فضيل بن عياض قال سمعت عبد الملك بن جريج يقول حدثني عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لا توضع النواصي الا لله تعالى في حج أو عمرة فإسوى ذلك فثلة» قال أبو نعيم غريب من حديث الفضيل لم نكتبه الا من هذا الوجه والنواصي جمع ناصية وهى مقدم الرأس والمراد بوضعها السجود ، والمثلة الشناعة والفظاعة :

قبور الأنبياء والصالحين مساجد فكيف من اتخذ القبور أو ثانا (١) تعبد من دون الله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا (٢) ، وفيه عنه أيضا : إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد (٣) ، وفيه أيضا عنه صلى الله عليه وآله وسلم : إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ، وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وآله وسلم : لعن الله زوارات (٤) القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج (٥) ، وقال : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وقال : إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله (٦) ، والناس في هذا

(١) الأوثان كالأصنام إلا أن الصنم تكون له هيئة كهيئة الناس أو الحيوانات والوثن كل ما عبد من دون الله وليست هيئته كالمهيئة السابقة (٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بإسناد جيد عن عبد الله ابن مسعود .

(٣) رواه أيضا أبو داود والنسائي والترمذي عن ابن عباس .

(٤) زوارات جمع زوارة وهي المرأة كثيرة الزيارة للقبور .

(٥) والسرج جمع سراج كالشمع والقناديل والمصابيح الكهربائية مما هو موجود في زماننا هذا وقبله .

(٦) الحديث في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها .

الباب أعنى زيارة القبور على ثلاثة أقسام . قوم يزورون الموقى فيدعون لهم^(١) وهذه الزيارة الشرعية : وقوم يزورونهم يدعون بهم^(٢) فهو لاء هم المشركون فى الألوهية^(٣) والمحبة ه وقوم يزورونهم فيدعونهم^(٤) أنفسهم وقد قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ه اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، وهؤلاء هم المشركون فى الربوبية وقد حى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقا لقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) حتى نهى عن الصلاة فى هذين الوقتين^(٥) لكونه ذريعة الى التشبيه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين : وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر^(٦) والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين

(١) السنة عند زيارة القبور أن يقول الزائر السلام عليكم أنتم السابقون ونحن اللاحقون ويدعو للبيت بالخير فيقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه اللهم تجاوز عن سيئاته وزد فى حسناته ومثل ذلك (٢) أى يتوسلون بهم فى الدعاء كدعائهم اللهم بحق هذا البطل أو بكرامة هذا الولى أو الشيخ افعلى كذا وكذا .

(٣) لأنهم يتخذون وسيطا لله ويحبون غيره ويعتقدون أن لغير الله دخلا فى فعل الله . (٤) كمن يقول من جملة المسلمين فى هذا الزمان ياسيدى ابراهيم يادسوقى انا محسوب عليك اشف لى مريضى أو اقض لى حاجتى ، أو ياسيدى يابدوى ، كيف تسكت على من ظلمنى إنك تعلم ظلمه لى ، فاقصف عمره أو فأثبتته فى مكانه لا يتحرك وهذا أخبت الشرك وأدله على الجهل الفاضح والبعد عن حظيرة الاسلام

(٥) المراد بالوقتتين ، وقت طلوع الشمس ووقت غروبها . حتى لا تكون العبادة مشوبة بتعظيم الشمس عند طلوعها وغروبها ، كما يفعل عبّادها (٦) الصلاة التى تحرم عند الشروق والغروب وبعد الصبح وبعد العصر

يسجد المشركون فيهما للشمس :

وأما السجود لغير الله فقد قال عليه الصلاة والسلام : لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله . ولا ينبغي ^(١) في كلام الله ورسوله إنما يستعمل للذي هو في غاية الامتناع كقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) وقوله تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) وقوله تعالى (وَمَا تَزَلَّتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ) وقوله تعالى (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ)

ومن الشرك بالله تعالى المبين لقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه عليه السلام أنه قال : من حلف بغير الله فقد أشرك ^(٢) ، صححه الحاكم وابن حبان قال ابن حبان أخبرنا الحسن وسفيان ثنا عبد الله بن عمر الجعفي ثنا عبد الرحمن بن سليمان عن الحسن بن عبد الله النخعي عن سعيد بن عبيدة قال كنت عند ابن عمر رضي الله عنه لحلف رجل بالكعبة فقال

= إلى غروب الشمس هي الصلاة التي لا سبب شرعي لها حتى لا يتوهم أن سبها هو تعظيم الشمس عند الشروق والغروب بسبب قرب هذين الوقتين من وقت طلوع الشمس ووقت غروبها أما الصلاة التي لها سبب كالقائنة والضحى وتحية المسجد وسنة الوضوء وغير ذلك فلا تحرم بل تجب في القائنة وتسن في غيرها (١) قوله لا ينبغي مبتدأ خبره قوله إنما يستعمل .

(٢) معنى الشرك هنا أن الحالف بغير الله قد جعل لله شريكا في التعظيم لأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه عظمة تشبه عظمة الله لأن الحلف خاص بالله وقد قال رسول الله ﷺ (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) أي ليسكت فلا يحلف مطلقا .

ابن عمر رضي الله عنه ويحك لاتفعل فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حلف بغير الله فقد أشرك ، * ومن الاشرار قول القائل لاحد من الناس ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندأ قل ماشاء الله وحده ، هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) فكيف بمن يقول أنا متوكل على الله وعليك وأنا في حسب الله وحسبك وما لى الا الله وأنت : وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركانك : والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض (١) : وزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين مانهى عنه من ماشاء الله وشئت ثم انظر أيها أخش يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وبالجواب (٢) من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ ندا فهذا قد جعل من لايدانيه لله ندأ : وبالجمله فالعبادة المذكورة فى قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هى السجود والتوكل والإناابة والتقوى والخشية والتوبة والنذور والحلف والتسبيح والتكبير وللهليل (٣) والتحميد والاستغفار وحلق الرأس (٤) خضوعا وتعبدآ والدعاء ، كل ذلك محض حق الله تعالى * وفى مسند الإمام أحمد

(١) كأن الشيخ المقرئ يعيىش بيننا فذه الألفاظ كثيرة التداول على الألسنة فى هذه الأيام نعوذ بالله من شرها وشر قائلها

(٢) معطوف على قوله بالبعد يعنى أولى بالجواب الخ :

(٣) التهليل والتحميد هو قول الحمد لله ولا إله إلا الله

(٤) هذا من أعمال الحج ، ولم يأمرنا الله بحلق رؤوسنا تعبدآ لإياه

هـ أن رجلا أتى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أنوب إليك ولا أنوب إلى محمد فقال ﷺ عرف الحق لأهله ، وأخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود ابن سريع وقال حديث صحيح : وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من بنحو منه فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقم بحقيقة قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فان (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هي الحنيفية ^(١) ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فاستمسك بهذا الأصل وردما ^(٢) أخرجه المبتدعة والمشركون اليه تتحقق معنى الكلمة الالهية هـ فان قيل المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوكة فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني اليه وتدخل بي عليه فهو الغاية وهذه وسائل فلم كان هذا القدر موجبا لسخط الله تعالى وغضبه ومغلدا في النار وموجبا

(١) الحنيفية . معاما التنزيهية وقد قال الله تعالى عن إبراهيم هـ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، أى منزها لله عن الشريك موحد له

(٢) أى اعرض ما يعمل أهل البدع على توحيد الله وإفراذه بالعبادة المفهوم من قوله تعالى هـ إياك نعبد ، فأياك تجد الفرق واضحا فكثير من أفعالهم وأقوالهم يؤدى إلى إشراك غير الله مع الله في الإلهية

لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط أم ذلك قبيح في الشرع والعقل يمنع أن تأتي به شريعة من الشرائع وما السر في كونه لا يغفر من بين الذنوب كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) قلنا الشرك شركان ه شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله ه وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفاته : وأما الشرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه وأشرنا إليه الآن وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى :

أما الشرك الأول^(١) فهو نوعان ه أحدهما شرك التعطيل^(٢) وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون في قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٣)) وقال (يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ

(١) الشرك الأول هو الشرك في ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله

(٢) التعطيل معناه في كلام فرعون إنكار ذات الله ، والتعطيل يشمل إنكار الذات وإنكار الصفات والأفعال كتعطيل فرعون والدهر بين الذين يقولون ما يهلكنا إلا الدهر ، والإقرار بوجودها مع عدم اشتغالها بشيء.

أصلا كالفلاسفة أو مع اشتغالها ببعض الأشياء دون بعض كالقدرية

(٣) هذا استفهام إنكارى أى ابن هو رب العالمين ليس هناك شيء.

اسمه رب العالمين . بدليل قول فرعون في الآية التي بعد هذه عن موسى « وإني لأظنه كاذبا ،

إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) والشرك والتعطيل متلازمان فكل
مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل
بل قد يكون المشرك مقرباً للخالق سبحانه وتعالى وصفاته ولكنه معطلة
حق التوحيد :

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل وهو ثلاثة
أقسام أحدها تعطيل المصنوع عن صانعه : الثاني تعطيل الصانع عن
كماله الثابت له : الثالث تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة
التوحيد : ومن هذا شرك أهل الوحدة ^(١) : ومنه شرك الملاحدة
القائلين بقدوم العالم وأبديته وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب
ووسائط اقتضت إيجادها ويسمونهم العقول والنفوس : ومنه شرك
معطلة الأسماء والصفات كالجهمية ^(٢) والقرامطة وغلاة المعتزلة ه النوع

(١) هم القائلون بوحدة الوجود كبعض الفلاسفة الإسلاميين القائلين
بأن العالم وما فيه جزء من ذات الله أو هو الإله ، حتى قال بعضهم د مافى
الجنة إلا الله ،

(٢) الجهمية طائفة يخالفون أهل السنة في كثير من الأصول كسألة
الرؤيا في الآخرة وإثبات الصفات ينسبون إلى جهم - بفتح فسكون وهو
جهم بن صفوان من أهل الكوفة وقد عقد ابن ماجة في أوائل سفته باباً
لرد عليهم وجهم من الجبرية الخاصة وهم القائلون بأن الانسان مجبور غير
مخير فهو كالريشة في مهب الريح لا يملك من أمره شيئاً وعلى ذلك لا يعاقب
على المعصية ولا يثاب على الطاعة ومن نحلته أنه لا يجوز أن يوصف البارئ
تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيهاً فتنى كونه حياً عالماً
وأثبت كونه قادراً فاعلا عالقاً لأنه لا يوصف شئ من خلقه بالقدرة والفعل

الثاني شرك التمثيل وهو شرك من جعل معه الها آخر كالنصاري في المسيح واليهود في عزيز والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر الى الظلمة : وشرك القدريّة المجوسية مختصر منه وهؤلاء أكثر مشركي العالم وهم طوائف جمّة منهم من يعبد أجزاء^(١) أرضية ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة^(٢) . ومنهم من يزعم أن الهه من جملة الآلهة : ومنهم من يزعم أنه اذا خصه بعبادته والتبتل اليه أقبل عليه واعتنى به : ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى^(٣) يقربه الى الأعلى الفوقاني والفوقاني يقربه الى من هو فوقه حتى يقربه تلك الآلهة الى الله سبحانه وتعالى فتارة تسكث الوسائط وتارة تقل :

= والخلق . وقد ظهرت بدعته بترمز وقلته سالم بن أحوز المازني يبرو في آخر ملك بني أمية : وأصل مقالة التعطيل للصفات والأسماء مأخوذ من تلامذة اليهود والمشرّكين وضلال الصابئين : وأول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الاسلام الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه : قيل إن الجعد أخذ مقالته بالتعطيل عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن ظالموت بن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر :

(١) كن يعبد الجبال والأنهار والأشجار والحيوان كالبحر في الهند والقط والعجل عند قدماء المصريين
(٢) كالشمس والقمر والنجوم

(٣) من الناس من يعبد آلهة عدة بعضها أعلى من بعض ، ويقرب ذلك الى الذهن ما كان عند العرب في الجاهليّة من أصنام كثيرة كان أكبرها وأعلاها الصنم دُبَلْ وكان يحوف الكعبة ومعه أصنام أخرى صغيرة وكان هبل الاله الأكبر وغيره من الأصنام آلهة صغيرة

فإذا عرفت هذه الطوائف وعرفت اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى في الأفعال والأقوال والارادات كما تقدم ذكره انفتح لك باب الجواب عن السؤال ، فنقول اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالخلق وتشبيه المخلوق بالخالق : أما الخالق فان المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الالهية وهى التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب ورب الارباب فإى فجور وذنب أعظم من هذا واعلم أن من خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلا وشرعا وفطرة فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له واشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر من كتب على نفسه الرحمة انه لا يغفره أبداً ، ومن خصائص الالهية والعبودية التى لا تقوم إلا على ساق الحب والذل فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله سبحانه وتعالى فى خالص حقه وقبح هذا مستقر فى العقول والفطر لكن لما غيرت الشياطين فطراً أكثر الخلق واجتالهم^(١) عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً^(٢) كما روى عن الله أعرف الخلق به وبخلقه نعموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسناً ، ومن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبهه به : ومنها التوكل فمن توكل على غيره.

(١) اجتالهم أى حولتهم

(٢) السلطان الحجة والدليل وسميت بذلك لأنها تقهر الخصم على التسليم بمقتضاها كما يقهر السلطان محكومته ويرغمه على التسليم بطلوبه

فقد شبهه به . ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به : ومنها الحلف باسمه فمن حلف بغيره فقد شبهه به : ومنها الذبح له فمن (١) ذبح لغيره فقد شبهه به : ومنها حلق الرأس إلى غير ذلك :

هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبه فمن تعاظم وتكبر ودعى الناس إلى إطرائه (٢) ورجائه وخافته فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر (٣) تحت أقدام خلقه : وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : يقول الله عز وجل العظمة إزارى (٤) والكبرياء ردائى فمن نازعنى في واحد منهما عذّبته (٥)

(١) الذبح لغير الله لا يكون حراما إلا إذا ذكر اسم غير الله على المذبح بأن قال الذابح باسم اللات أو باسم العزى أو باسم يزدان أو نحو ذلك أما إذا سكت ولم يذكر اسم غير الله فلا يكون ذلك ذبحا لغيره ويكون أكله حلالا (٢) أى مدحه وتعظيمه

(٣) المراد بالذر التراب

(٤) الأزار ما يستر نصف الجسم السفلى والرداء ما يستر نصفه العلوى ، ومعنى ذلك فى حق الله تعالى أنه مشتمل بالعظمة والكبرياء مختص بهما لا يشاركه فيهما أحد

(٥) الحديث أخرجه مسلم من رواية أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يقول الله) العز إزاره والكبرياء ردائه فمن ينازعنى عذّبته ، ورواه البرقانى فى مستخرجه عن الطريق الذى أخرجه مسلم ولفظه : يقول الله عز وجل العز إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى شيئا منهما عذّبته ، ورواه أيضا أبو دارود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه

وإذا كان المصور الذى يصنع الصور ^(١) يده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالمشبه بالله فى الربوبية والإلهية كما قال صلى الله عليه وسلم : أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم احيوا ما خلقتم ^(٢) ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه

= وآله وسلم قال الله تعالى الكبرياء رداق والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار ، : ومعنى نازعنى تخلق بذلك فيصير فى معنى المشارك : قال الخطابي فى المعالم معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه وتعالى اختص بهما لا يشركه أحد فيهما ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل : وضرب الرءاء والازار مثلاً فى ذلك يقول والله أعلم كما لا يشرك الانسان فى رءائه وازاره فكذلك لا يشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق : والله أعلم

(١) الصور المحرمة هى صور ماله روح اذا كانت على هيئة يعيش بها أو كان القصد منها العبادة أو الزانى الى الله ، أو كانت سبيلاً الى الزنى والعبادة ولو بعد تقادم الزمان أما صور البحار والأنهار والأشجار والمناظر الطبيعية التى تدل على قدرة الله تعالى فليست حراماً بل ربما كان لصاحبها الثواب الجزيل اذا نوى بعمله اظهار قدرة الله تعالى وجبيل صنعه

(٢) الحديث فى الصحيحين : عن عبد الله بن عمر قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، ورواه النسائي أيضاً : وهذه الرواية لا يرد عليها شئ : وفى رواية لمسلم : ان من أشد أهل النار يوم القيامة عذاباً المصورون ، وعليها يرد الاشكال النحوى من رفع اسم إن والجواب عنه : وفى الباب أحاديث كثيرة تفيد تحريم التصوير وعلّة النهى ظاهرة :

وسلم أنه قال : يقول الله عز وجل ، ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى
 فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة ^(١) ، فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو
 أعظم منهما : وكذلك من تشبه به تعالى فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له
 كملك الملوك وحاكم الحكام وقاضى القضاة ونحوه وقد ثبت فى الصحيح
 عن النبى ﷺ أنه قال ، إن أخنع ^(٢) الأسماء عند الله رجل تسمى
 بشاهان شاه ملك الملوك لا مالك إلا الله ، وفى لفظ ، أغبط رجل
 عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ^(٣) ، وبالجملة فالتشبيه ^(٤) والتشبه

= وقوله احبوا ما خلقتم أى اجملوه حبوانا ذا روح وهذا الأمر يسمى أمر
 تعجيز : ومعنى خلقتم قد رتم وصورتم :

(١) الحديث فى الصحيحين مطولاً عن أبى هريرة : وقوله ، ومن أظلم ،
 أى لا أحد أظلم ممن ذكر حال كونه يخلق أى يصنع : والذرة بفتح الدال
 الماجمة وتشديد الراء التلة الصغيرة : والغرض تعجيزهم تارة بخلق الجناد
 وأخرى بخلق الحيوان :

(٢) أخنع أفعل تفضيل من الخنوع وهو الخضوع والذلة ، أى ان أذل
 اسم وأحقه عند الله شاهان شاه وملك الملوك ونحو ذلك

(٣) هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله
 وسلم ، قال أن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل تسمى ملك الأملاك ،
 زاد ابن أبى شيبة فى روايته ، لا مالك إلا الله عز وجل ، قال الأشعثى قال
 سفيان مثل شاهان شاه : وقال أحمد بن حنبل سألت أبا عمرو عن أخنع
 فقال أوضع :

(٤) التشبيه . هو تشبيه الله تعالى بغيره باعتقاد أن غيره يقدر على فعل
 شئ مما اختص به ، والتشبه . أن يشبه الشخص نفسه باله فى بعض الصفات ،

هو حقيقة الشرك ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى فإنه يخطيء لكونه شبهه به وأخذ ما لا ينبغى أن يكون إلا له فالشرك منه سبحانه وتعالى حقه فهذا قبيح عقلاً وشرعاً ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله .

واعلم أن الذى ظن أن الرب سبحانه وتعالى لا يسمع له أو لا يستجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك أو تسأل ذلك منه فقد ظن بالله ظن السوء فإنه إن ظن أنه لا يعلم أو لا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه فلذلك نفى لعلم الله وسمعه وكما إدراكه وكفى بذلك ذنباً : وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يليه ويعطفه عليه فقد أساء الظن بأفضال ربه وبره وإحسانه وسعة جوده ، وبالجملة فاعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن ولهذا يتوعدهم في كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد كما قال تعالى (الظَّالِمِينَ ^(١)) بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ

= كالكبرياء والعظمة والتسلط على الناس ، ونفعهم وضرهم لأظهار القدرة على النفع والضرر ، فهذا شرك لأن الكبرياء والعظمة والتسلط والنفع والضرر اختص بها الله جل جلاله

(١) أول هذه الآية (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظالمن) الآية وقد كان المنافقون والمشركون يظنون بالله ظن السوء فيعتقدون أن الله لن يحقق وعده لرسوله بنصره في الحرب ، وأن المسلمين سيهزمون وأن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم ، وقد ورد ذلك في سورة الأحزاب في قوله تعالى . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وفي سورة الفتح أيضاً وهي السورة التي وردت فيها الآية التي تتكلم فيها . في قوله تعالى . بل ظننتم أن لن ينقلب

وَعَزِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام (أِنْفَكَ)^(١) إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أى فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره وظننتم أنه يحتاج فى الاطلاع على ضرورات عبادته لمن يكون باباً للحوائح اليه ونحو ذلك : وهذا بخلاف الملوك فانهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين : فاما من لا يشغله سمع عن سمع وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فإتصنع الوسائط عنده ، فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح الظن ومستحيل أن يشرعه لعباده بل ذلك يمتنع فى العقول والفطر :

=الرسول والمؤمنون إلى أهلهم ابدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فاعتقاد المنافقين عدم تحقيق الله وعده وصف له بالنقص ، واعتقاد الشخص أن الله يحتاج إلى وساطة حتى يجيب الدعاء أو يحقق الرجاء وصف له بالنقص أيضا وكلاهما ظن السوء بالله ، وكل من اعتقد فى الله نقصا أو احتياجا إلى الغير حتى يرحم أو يعطى فقد ظن به ظن السوء

(١) هذه الآية وردت على لسان إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وقد وصف إبراهيم عليه السلام عبادة غير الله بأنها إلفك أى كذب وضلال مبين ، ثم قال لقومه فإظنكم برب العالمين ، استفهام توبيخى أى أظنون بالله ظن السوء ، فنشركون به غيره لاعتقادكم أنه لا يجيب ما تطلبون من غير مساعد أو وسيط ؟

واعلم أن الخضوع والتأله الذى يجعله العبد لتلك الوسائط قيسح
 فى نفسه كما قررناه لاسبابها إذا كان المجعول له ذلك عبداً للملك العظيم
 الرحيم القريب الجيب وملوكا له كما قال تعالى (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ
 أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ
 فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) أى إذا كان أحدهم يأنف
 أن يكون ملوكه شريكه فى رزقه فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء
 فيما أنا منفرد به وهو الالهية التى لا تنبغى لغيرى ولا تصلح لسواى
 فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ولا عظمى حق تعظيمى ، وبالجمله
 فما قدر الله حق قدره من عبد معه من ظن أنه يوصل اليه قال تعالى
 (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) الآية إلى أن قال (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ
 اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) وقال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ
 جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ) فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه
 الضعيف الدليل :

واعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل
 ضلالهم راجعا إلى شيئين : أحدهما الظن بالله ظن السوء : ولم يقدرُوا
 الرب حق قدره فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولا ولا

أنزل كتاباً بل ترك الخلق سدى وخلقهم عبثاً (١) ولا قدره حق قدره . من نفي (٢) عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم وأخرجهما عن خلقه وقدرته ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا إنه يعاقب عبده (٣) على ما لم يفعله ، بل يعاقبه على فعله سبحانه وتعالى : وإذا استحال في العقول أن يجبر السيد عبده على فعل ثم يعاقبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين : وقول هؤلاء شر من أشباه المجوس القدرية الأذلين : ولا قدره حق قدره من نفي رحمته (٤) ورضاه

(١) هؤلاء هم الملاحدة الذين يعتقدون ألاّ رسل ولا كتب وأن الله اكتفى بخلق الخلق ، وسيعرفه من جاد عقله ، وينكره من أظلمت بصيرته ، ولم يرتب الله على ذلك شيئاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

(٢) هؤلاء هم القدرية السابقون الذين يقولون إن العبد يخلق أفعال نفسه كلها أو يخلق الشر والله يخلق الخير .

(٣) هؤلاء هم الجبرية الذين يقولون إن العبد لا اختيار له وأنه كالرشة في مهب الريح ، يسيره الله كيف يشاء ، فالله هو الذي بوجهه إلى الخير وإلى الشر ، وكلاهما فعل الله والعبد لا فعل له ولا اختيار ، ويترتب على ذلك أن يعذب الله العبد على الشر وهو مجبور عليه ، وقد ردّ عليهم الشيخ المقرئ بقوله « بل يعاقبه على فعله ، الخ .

(٤) يريد الشيخ بهذا الصنف المؤاين الذين يؤولون صفات الله التي لا يليق مثلها في الحوادث بالإله كالرحمة والرضى والغضب والمحبة والعجب والضحك كما ورد في بعض الأحاديث أن الله يعجب من شاب لا صبرة له ويضحك الله من رجلين يقتتلان ثم يدخلان الجنة ونحو ذلك مما ورد من الصفات وله نظير في الحوادث وهذا النظر لا يليق بالله ، فقد أولوا هذه الصفات

و بحبته وغضبه وحكمته مطلقاً (١) و حقيقة فعله لم يجعل له فعلاً اختيارياً بل أفعاله منفعة عنه : ولا قدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله يحل (٢) في مخلوقاته أو جعله عين (٣) هذا الوجود : ولا قدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته (٤) وجعل فيهم الملك ووضع (٥) أولياء رسوله وأهل بيته وهذا يتضمن غاية القدر في

= وجعلوا الرحمة والرضى والمحبة بمعنى النعم والغضب والسخط بمعنى العذاب والعجب برفعة مكانة الشاب عند الله ، والضحك بمعنى التجلي عليهما وتعييمهما ونحو ذلك ، وقد أراد الشيخ بنى هذه الصفات أن تأويلها ينفيها ويثبت عدلها صفات أخرى ومن يفعل ذلك لا يكون قدر الله حق قدره ، وإنما يجب إثبات هذه الصفات واعتقاد أنها مخالفة لصفات الخلق .

(١) هؤلاء هم الفلاسفة القائلون إن الله خلق للعقول العشرة وتركها تؤثر في الكون فكل ما يحدث في العالم مفعول لله بواسطة هذه العقول ، وهذا يؤدي الى عدم الحكمة والاختيار لأن الحوادث والأفعال تصدر عن العقول صدوراً آلياً كما يقولون .

(٢) هؤلاء هم الحلوليون الذين يقولون إن الله يحل في بعض المخلوقات فينقلب المخلوق الى الله وهو رأى باطل كلاحقه ، لأنه يقتضى أن الانسان أو الشجرة التي يحل فيها الاله الله وهذا سخف لا يعقل .

(٣) هؤلاء أهل وحدة الوجود القائلون بأن العالم من ذات الاله فكل شيء منه يصدق عليه أنه الله كما سبق من قول بعض الفلاسفة ما في الجبة الا الله (٤) هؤلاء هم الملحدين المنكرون لوجود الله . يقولون لو كان الله موجوداً فكيف ينصر بنى أمية على عليّ وأهل البيت ، وهم قسم من غلاة الشيعة أدى بهم غلوهم في التشيع الى الكفر والاثم العظيم .

(٥) أى جعل مكانتهم وضعية حقيرة

الرب تعالى الله عن قول الرافضة : وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في قول رب العالمين إنه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة وكذب على الله ومكث زمنا طويلا يقول أمرنى بكذا ونهانى عن كذا ويستبيح دماء أبناء الله وأحبائه والرب تعالى يظهره ويؤيده ويقم الأدلة والمعجزات على صدقه ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه ويقم دولته على الظهور والزيادة ويذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام : فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين سواء : ولا قدره حق قدره من زعم أنه لا يحيى^(١) الموتى ولا يبعث من فى القبور ليين لعباده الذى كانوا فيه يختلفون وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وبالجملة فهذا باب واسع والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره .
 فانما عبد شيطانا قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) .
 فما عبد أحد أحد من بنى آدم كائنا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول غرضه ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى وذلك غاية رضى الشيطان ولهذا قال تعالى (وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

(١) هؤلاء قسم من الملحدين يعتقدون أن الله خلق الخلق لبيان قدرته . ولكنه لا يحيمهم بعد موتهم ولا يحاسبهم اكتفاء بإظهار القدرة فى الدنيا .
 (٢) الخطاب هنا لشياطين الجن وهم أعوان إبليس الذين يساعدونه فى إغواء الناس وتهيئة سبل الفساد لهم ، ومن الجن مسلمون صالحون يعبدون الله ويتعرضون لاغواء الجن الآخرين المفسدين كما يتعرض لاغواءهم مسلمو

أَيُّ مَنْ اغْوَاهُمْ وَإِضْلَاهُمْ) وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ
بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ (١)
خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) فهذه إشارة لطيفة
إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وأنه لا يغفر
بغير التوبة منه وأنه موجب للخلود في العذاب العظيم وأنه ليس تحريره
قبجه بمجرد النهي عنه فقط بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن
يشرع لعباده عبادة إله غيره كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله
ونعوت جلاله .

واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به أقسام أجملها
وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عاينها : فعبادة الله غاية مرادهم :
وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم ولهذا
كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإغاثة على مرضاته (٢) وهو الذي عليه

= الانس فن أطاع الإغواء دخل في العصاة المستحقين للعذاب ومن عصمه الله
نجا ودخل في الصالحين الذين يجزون الحسنات ، وقد بين الله تعالى ذلك في
سورة الجن فقال على لسانهم : وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ
فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ، والقاسطون
الجائر الخائدون عن الطريق المستقيم وقال تعالى في آية أخرى من سورة
الجن أيضا على لسان الجن : وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الدُّنَّاءِ كُنَّا طَرَائِقَ
قَدَدًا ، أي طرائق مختلفة متشعبة .

(١) مَثْوَاكُمْ أي مكان ثوائكم وإقامتكم الدائمة .

(٢) بامثال الأول وأمر واجتناب النواهي والحب لطاعته والبغض لمعصيته

النبي ﷺ لمعاذ بن جبل فقال : يا معاذ والله إنني أحبك فلا تدع أن تقول في دُبُرِ كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ^(١) . فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى : ويقابل هؤلاء القسم الثاني المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة لهم ولا استعانة بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته والله سبحانه وتعالى يسأله من في السموات والأرض ويسأله أولياؤه وأعداؤه فيعده هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلق الله إبليس ومع هذا أجاب سؤاله ^(٢) وقضى حاجته ومتعه بها ولكن لما لم تكن عوناً على مرضاته كانت زيادة في شقوته وبعده : وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عوناً له على طاعته كان سؤاله مبعداً له عن الله فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه بل قد يسأله

= وكان من دعاء الرسول ﷺ بعد التحيات : اللهم ارزقني من اليقين بك ما يحبني في طاعتك ومن خشيتك ما يمنعني عن معصيتك ، ومن دعائه قبل قراءة الفاتحة : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد ، يريده ﷺ بغسله بالماء وبالثلج وهو الماء الجامد والبرد وهو الماء المنعقد حبات صغيرة أن ينظفه تمام النظافة من المعاصي وقذارتها .

(١) أخرجه أبو داود وأحمد بن حنبل ورواه النسائي بسند قوى على ما قاله ابن حجر في كتابه بلوغ المراد من أدلة الأحكام .

(٢) هو قوله : رب انظرني إلى يوم يبعثون ، فقال الله تعالى له : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، فلما أجاب الله سؤاله قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

عبد الحاجة في قضيتها له وفيها هلاكه ويكون منعه منها حماية له (١)
وصيانة والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة :

وعلاوة هذا أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يحمل حقيقة
الأمر إذا رآه سبحانه وتعالى يقضى حوائج غيره يسمى ظنه به تعالى
وقلبه محشوب بذلك وهو لا يشعر : وأما ذلك حمله على الأقدار وعتابه
في الباطن لها ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله
تعالى (فَلَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي
أَكْرَمَنِي وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا)
أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخواتمه (٢) فقد أكرمه وما ذاك لكرامته
على ولكنه ابتلاء منى وامتحان له أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك أم
يكفرن فأسلبه إياه وأحواله عنه لغيره وليس كل من ابتليته فضيقت
عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذاك من هوأنه على ولكنه
ابتلاء وامتحان منى له أيصبر فأعطيه أضعاف مافأنه أم يسخط فيكون
حظه السخط : وبالجلة فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على
المال وسعة الرزق وتقديره فأنه سبحانه وتعالى يوسع على الكافر
للكرامته ويقتر على المؤمن لاهوأنه عليه وإنما يكرم سبحانه وتعالى
من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفة ومحبة وعبادته واستعانتة : فغاية

(١) فلا يحزن العبد إذا لم يحبه الله تعالى إلى ما طلب لأنه عالم بكل شئ .
حكم فيما يعطى ويمنع ، بل يجب عليه الرضى بما قسمه الله له مع الإيقان بأن
الحير فيما اختاره الله (٢) معنى خواتمه أعطيته وقد ورد ذلك فى قوله تعالى
« فإذا مس الإنسان ضر دعا نأثم إذا خوة لنا نعمة منا قال إنما أوتيته على
علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ،

سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها :

القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان : أحدهما أهل القدر القائلون بأنه سبحانه وتعالى قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الإلطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسول وتمكينه من الفعل فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسألها إياها^(١) وهؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريقة الاستعانة والتوحيد : قال ابن عباس رضى الله عنهما الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض توحيده : النوع الثاني من لهم عبادة وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة^(٢) لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وأنها بدون المقدور كالموت الذى لا تأثير له بل كالعدم الذى لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها والمعول على المحرك الأول فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبب ومن الآلة إلى الفاعل فقل نصيبهم من الاستعانة : وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب

(١) يقول هؤلاء إن العبد يخلق أفعال نفسه من الطاعات والمعاصى وهى مخلوقة لله بواسطة إقدار العبد عليها لا مباشرة وعلى ذلك فقد ترك الله العبد بعد أن خلق فيه الآلات ووسائل الفعل وهى له سبيله ، وهداه للتجدين بإرسال الرسل فالعبد متروك لاختياره وكل فعل يصدر عنه ناشئ من ذاته وبقدرته فلا داعى للاستعانة به على العبادة وترك المعصية لأن الله قد أعانه على ذلك بما أقدره على العمل والنزك .

(٢) أى أنهم يفعلون الطاعات ولا يفكرون فى طلب عون الله لهم عليها لعدم ثبات قدمهم فى التوحيد والتوكل .

استعانتهم وتوكلهم ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم
وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن
مكانه لأزاله :

فان قيل ما حقيقة الاستعانة عملاً : قلنا هي التي يعبر عنها بالتوكل ^(١)
وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى وفردته بالخلق والامر
والتدبير والضر والنفع وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فتوجب اعتمادا
عليه وتفويضاً اليه وثقة به فتصير نسبة العبد اليه تعالى كنسبة الطفل
إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته فلو دهمه ماعسى أن يدهمه من
الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما : فان كان العبد مع هذا الاعتماد من
أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)
أي كافيهِ .

القسم الرابع من له استعانة ^(٢) بلاعبادة وتلك حالة من شهد بتفرد

(١) وحقيقة التوكل هي أن يلجأ العبد في كل أموره صغيرها وكبيرها
إلى الله كما يلجأ الطفل إلى أبويه في كل أموره كما سيأتي للعلامة المؤلف .
(٢) هذا هو المتوكل على الله في كل أموره المعتقد تفرده بالنفع والضر
فيلجأ إليه في حظوظه الدنيوية حتى ما كان منها معصية . ولكنه لا يفعل
الطاعات ، وهذا الصنف من الناس فقد عنصرا من عناصر الايمان وهو العمل
لأن الايمان قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب ، والعمل ركن
مهم من أركان الايمان من فقدته فقد فقد الثواب والنعم في الآخرة لأن الله
تعالى جعل الثواب على عمل الطاعات ، ولذلك قال الشيخ المقرئ فذلك
حظه من دنياه وآخرته .

الله بالضر والنفع ولم يدر بما يحبه ويرضاه فتوكل عليه في حظوظه فاسعفه بها : وهذا لاعاقبة له سواء كانت أموالا أو رياسات أو جاها عند الخلق أو نحو ذلك فذلك حظه من دنياه وآخرته :

واعلم أن العبد لا يكون متحققا بعبادة الله تعالى إلا بأصلين ، أحدهما متابعة الرسول ﷺ ، والثاني إخلاص العبودية : والناس في هذين الأصلين على أربعة أقسام : أهل الإخلاص والمتابعة فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحجهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى لا يريدون من العباد جزاء ولا شكورا ، عدوا الناس كاصحاب القبور لا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا : فانه لا يعامل أحدا من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق : والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملا صوابا عاريا منه وهو الذي الزم عباده به إلى الموت قال الله تعالى (لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقال (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وأحسن العمل أخلصه وأصوبه . فالخلاص أن يكون لله والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ وهذا هو العمل الحسن المذكور في قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وهو العمل الصالح في قوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله وكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ، ^(١) وكل عمل بلا متابعة فانه لا يزيد

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها بلفظ قالت

عامله إلا بعدا من الله تعالى فان الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآهواء والآراء .

الضرب الثاني من لا إخلاص له ولا متابعة ^(١) له وهؤلاء شرار الخلق وهم المتزبنون بأعمال الخير يراؤون بها الناس وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة فانهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا : وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد ، وفي رواية لمسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ، وأخرجه أيضا أبو داود وابن ماجه : وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الاسلام فكل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء . هذا منطوق الحديث ، ومفهومه كل عمل عليه أمره فهو غير مردود : والمراد بأمره مهنا دينه وشرعه : وفيه إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود : والله أعلم .

(١) أى لا يخلص عمله لله ولا يتبع رسوله وإنما يتبع هواه فيبتدع ما يأتي على هواه رغبة في الشهرة وحسن السمعة في الدنيا أو لكسب المال والجاء والمراكر في الدولة وقد بين المؤلف بعض هذا الصنف .

الضرب الثالث من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر كجهال^(١) العباد والمنتسبين إلى الزهد والفقر وكل من عبد الله على غير مراده : والشأن ليس في عبادة الله فقط بل في عبادة الله كما أراد الله : ومنهم من يمتك في خلوانه تاركا للجمعة ويرى ذلك قرينة ويرى مواصلة صوم النهار والقيام بالليل قرينة وأن صيام يوم الفطر قرينة وأمثال ذلك .

الضرب الرابع من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله تعالى كطاعات المرائين : وكالرجل يقاتل رياء وسمعة وحمية^(٢) وشجاعة

(١) هذا الصنف يخلص لله ولا يعمل إلا لوجهه ولكنه جاهل بالسنة غير فاهم لأحكام الدين فينحرف عن الطريق المستقيم ويعتقد أن ذلك هو الدين ، ومن هذا الصنف في زماننا هذا من يتركون كثيرا من الصلوات ويقولون الله أعلم بالقلوب ، يظنون أن الدين إيمان بالقلب فقط ، ومن يزيدون في العبادة المسنونة اعتقادا بأن ذلك خير كن يصلي بعد العصر نفلا مطلقا فإذا نهى عن ذلك ، قال وهل الصلاة مكروهة هذا خير والزيادة في الخير لا بأس بها ، ومن ذلك ما ذكر المؤلف من مواصلة الصيام وقيام الليل وترك حق البدن والزوجة وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك أبا سلمة رضي الله عنه وقال له « إن لبدنك عليك حقا ولزوجك عليك حقا ولربك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه ، ومن ذلك من يتركون أكل الطيبات التي أحلها الله حتى يضعفوا عن العبادة ، ويتركون التمتع بالنساء زهدا وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال مامعناه إنه هو أفضل الخلق وأولاهم بالزهد والعبادة ومع ذلك فهو يصوم ويفطر ويأتي النساء .

(٢) القتال للحمية أن يقاتل الرجل غيره على أهله أو وطنه أن يستبيحهما

وللغنم ، ويحج يقال ويقرأ يقال ويعلم ويؤلف يقال (١) فهذه أعمال
صالحة لكنها غير مقبولة قال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة
والإخلاص فيها : والقائم بهما هم أهل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)
ثم أهل (٢) مقام (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) لهم في أفضل العبادة وأنفعها
وأحقها بالاثار والتخصيص أربعة طرق وهم في ذلك أربعة أصناف ،
الصنف الأول عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها
قالوا لأنه أبعد الأشياء من هواها وهو حقيقة التعبد والأجر على
قدر المشقة ورووا حديثا ليس له أصل ، أفضل الأعمال أحمرها (٣) ،

= الأعداء ، والقتال للشجاعة أن يقاتل يقال إنه شجاع والقتال للغنم أن
يقاتل طمعا فيما يغنمه ويكسبه من الأعداء ، ولا يريد بذلك وجه الله وهذا
لا فائدة له من قتاله إلا ما أراد ، ويوم القيامة يكله الله إلى غرضه ويقال له
كنت تقاتل يقال فلان شجاع فقد قيل .

(١) أى يقال فلان حج وفلان قرأ وفلان علم وألف الخ فتواب فاعل
هذا ما قيل عنه في الدنيا وليس له في الآخرة شيء .

(٢) هم الذين أسلوا وجوهم إلى الله وأخلصوا له قلوبهم ، لا يتوكلون
إلا عليه ولا يشركون معه غيره في الحب .

(٣) مثل ذلك ما يردده جهال الناس في هذه الأيام من قولهم ، الثواب
على قدر المشقة ، ويتحملون في عبادتهم المشاق التي ليست مطلوبة في
العبادات ولم يأمر بها الله ، كأن يتجشموا المسير مسافات بعيدة ليصلوا في
مسجد بعيد ويجوارهم المساجد كثيرة ، أو يتجشموا مشاق الحج سيراً على

أى أصعبها وأشقها وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس
قالوا وإنما تستقيم النفوس بذلك إذ طبعها الكسل والمهاونة والإخلاد
إلى الراحة فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق ، الصنف
الثاني قالوا أفضل العبادات وأنفعها التجرد والزهد فى الدنيا والتقلل

=الافدام وقد خلق الله السفن والسيارات والطيارات المريحة ومنهم من يعتمد
الحج راكباً جلاً ولا يركب السيارة لأن فى ركوب الجمل مشقة وأمثال
ذلك كثيرة ، وهؤلاء وأعموم ، فتوابهم مع الصلاة فى المسجد البعيد
كثوابهم فى المسجد القريب ، إلا أن تكون فى البعيد مزية دينية كأن
يكون إمام المسجد البعيد أروع من الإمام القريب أو أعلم منه أو أقرأ
فيزيد ثوابهم ، أو تكون خطبته أو عظم من خطيب المسجد القريب أو
يكون المسجد القريب مقاماً على قبر والبعيد خال من القبر أو نحو ذلك فلهـم
مزيد من الثواب بما تعملوا من المشقة فى الذهاب إلى البعيد ، وكذلك الذى
يحج راكباً جلاً لا يزيد ثوابه على راكب السيارة ، ومن حج ماشياً لا يزيد
ثوابه على الراكب إلا أن يكون نذرَ الحج ماشياً ، فيزيد له ثواب النذر
لأنه قربته لله تعالى له ثواب ، وإنما يكون الثواب على قدر المشقة فيما كلفنا
الله به ولم نكلف به أنفسنا فى غير النذر ، كثواب الصيام مع المشقة المحتملة
أو مع المرض الذى لا يضره الصوم ولكن يتألم صاحبه منه أثناء الصيام
وكالصوم فى السفر فقد أباح الله المريض والمسافر الفطر فاذا صام وتحمل
فله ثواب أكثر من الصائم المقيم الصحيح ، لأن الله تعالى يقول : فمن كان
منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، ثم قال بعد ذلك : وأن
تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، فبين أن الصيام مع تحمل المشقة أفضل
فيجازى متحمل المشقة بما تحمل فى هذا .

منها غاية الامكان واطراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث لما هو منها :
ثم هؤلاء قسيمان فعوامهم ظنوا أن هذا غاية فشمروا اليه وعملوا عليه
وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة ورأوا الزهد في الدنيا غاية
كل ^(١) عبادة ورأسها، وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره وأن
المقصود به عكوف القلب على الله تعالى والاستغراق في محبته والاناة
اليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته فرأوا أفضل العبادات دوام
ذكره بالقلب ^(٢) واللسان : ثم هؤلاء قسيمان فالعارفون إذا جاء الأمر
والنهي بادروا اليه ولو فرقه وأذهب جمعهم، والمنحرفون منهم يقولون :
المقصود من القلب جمعيته فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفتوا
اليه ويقولون :

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد
ثم هؤلاء أيضاً قسيمان منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته :
ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ويعلم العلم النافع لجمعيته :
والحق أن الجمعية حظ القلب : وإجابة داعي الله حق الرب فمن أثر

(١) وهؤلاء لم يوفقوا ، لأنه يجب على العبد أن يأخذ نصيبه من الدنيا
الذى يجعله حيا عاملا في الحياة ولا يتركها جملة ، وقد قال تعالى لقارون
« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وعدم
أخذ العبد بنصيبه من الدنيا يفقده مزية الحياة ويصبح شخصا منعزلا عن
الناس ولا تستقيم الدنيا ولا تسير كما أراد الله إلا إذا أخذ كل فرد بنصيبه
منها ، وانحراف الناس عن ذلك تعطيل لارادة الله وبعد عن مرضاته .

(٢) مع أخذ نصيبهم من الدنيا

حق نفسه على حق ربه فليس من العبادة في شيء ، الصنف الثالث رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعدد فراه أفضل من النفع القاصر فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل لقوله ﷺ ، الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، ^(١) قالوا وعمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفع متعدد إلى الغير فأين أحدهما من الآخر : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب : وقد قال ﷺ لعلي ، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم ، ^(٢) وقال ، من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ^(٣) وقال ، إن الله وملائكته يصلون

(١) لا بد مع نفع الناس ومساعدتهم من القيام بالواجبات التي فرضها الله من الصلاة والصيام والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك فإذا ترك الشخص هذه الواجبات واشتغل بحلب المصالح للخلق ، كأنما فيما ترك فاقدا لثوابه مستحقا للعقاب على الترك وقد لا يعادل ثواب نفع الناس عقاب ترك الواجبات فيكون فاعل ذلك مقصرا محسترا وهذا الحديث رواه الطبراني في معجمه .

(٢) رواه ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله عن سهل بن سعد ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي رافع بلفظ «لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» .

(٣) هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال ، من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام

على معلمى الناس الخير،^(١) وقال : إن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر والنملة فى جحرها ، قالوا وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصاحب النفع لا ينقطع عمله مادام نفعه^(٢) الذى تسبب فيه : والآنياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا

= من تبعه لا ينقص ذلك من آئامهم شيئا ،

(١) الحديث رواه الترمذى عن أبى أمامة مطولا وقال حديث حسن صحيح : ورواه البزار من حديث عائشة مختصرا ، قال معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان فى البحر ، وقد ورد فى مدح العلم والعلماء أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر : والمراد بالعلم العلم النافع الذى تظهر آثاره بالمتصف به عملا وليس المراد به علم أكثر أهل الزمان المجرد عن العمل به والاخلاص .

(٢) عدم انقطاع ثواب المتسبب فى النفع مقيد بالنفع المستمر بعد موت صاحبه بشرط أن يكون علما ينفع أو صدقة جارية أو سنة حسنة فى الدين ، والدليل على ذلك قول الرسول ﷺ ، إذ مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ، وقوله ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وحديث مسلم الذى مر فى الصفحة السابقة ، أما النفع المنقطع كالصدقة فى حياة الميت فقط ، وكذلك من علم الناس خيرا دنيويا يستمر نفعه بعد موته كمن اخترع السيارة أو الطائرة إذا كان مسلما ، ومن اخترع آلة لقطع الخشب بسرعة أو آلة حاسبة أو نحو ذلك فلا يستمر ثوابه بعد موته بل ينقطع بمجرد الموت .

بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع والتعبد وترك مخالطة الناس : ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك قالوا ومن ذلك العلم والتعليم ونحو هذه الأمور الفاضلة :

الصنف الرابع قالوا أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه وتعالى وشغل كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته : فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن : والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به : والأفضل في وقت السحرا الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء : والأفضل في وقت الأذان ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن : والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى المسجد وإن بعد : والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج المبادرة إلى مساعدته بالجاء والمال والبدن : والأفضل في السفر مساعدة المحتاج وإعانة الرفقة وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة : والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك : والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر : والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الاكثار من التعبد لاسيما التكبير والتهليل

والتحميد وهو أفضل من الجهاد غير المتعين والأفضل في العشرة
 الأواخر من رمضان لزوم المساجد والخلو فيها مع الاعتكاف
 والإعراض عن مغالطة الناس والاشتغال بهم حتى انه أفضل من الاقبال
 على تعليمهم العلم وإقراهم القرآن عند كثير من العلماء : والأفضل في
 وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشيعه
 وتقديم ذلك على خلوتك وجميعتك : والأفضل في وقت نزول النوازل
 وإيذاء الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم والمؤمن الذي
 يخالط الناس ويصبر على أذاهم أو إيذائهم أفضل من المؤمن الذي
 لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم : وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم
 فيه وعزلتهم في الشر أفضل من خلطتهم فيه : فان علم أنه إذا خالطهم
 أزاله ^(١) وقله لخلطتهم خير من اعتزالهم وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق
 والأصناف التي قبلهم أهل التعبد المقيد فتى خرج أحدهم عن الفرع
 الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن
 عبادته فهو يعبد الله تعالى على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس
 له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضات الله
 تعالى : إن رأيت العلماء رأيته معهم وكذلك في الذاكرين : والمتصدقين
 وأرباب الجمعية وعكوف القلب على الله فهذا هو الغذاء الجامع للساثر
 إلى الله في كل طريق والوافد عليه مع كل فريق : واستحضره هنا حديث
 أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقول النبي ﷺ بحضوره هل منكم
 أحد أطعم اليوم مسكينا قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد أصبح

(١) قوله أزاله وقله أى الشر المتقدم ذكره قبل :

اليوم صائما قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد عاد اليوم مريضا قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد اتبع اليوم جنازة قال أبو بكر أنا ، (١) الحديث : هذا الحديث روى من طريق عبد الغنى بن أبي عقيل حدثنا نعيم ابن سالم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ جالسا في جماعة من أصحابه فقال من صام اليوم قال أبو بكر أنا قال من تصدق اليوم قال أبو بكر أنا قال من عاد اليوم مريضا قال أبو بكر أنا قال من شهد اليوم جنازة قال أبو بكر أنا قال وجبت لك ، يعنى الجنة : و نعيم بن سالم وإن تسكلم فيه لكن تابعه سلبية ابن وردان وله أصل صحيح من حديث مالك عن محمد ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال من أنفق زوجين في سبيل الله نودى في الجنة يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة نودى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد نودى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان فقال

(١) الحديث أخرجه ابن خزيمة في صحيحه وأورده الحافظ عبد العظيم المنذرى في كتابه الترغيب والترهيب وسكت عنه : ولفظه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : من أصبح منكم اليوم صائما فقال أبو بكر رضى الله عنه أنا فقال من أطعم منكم اليوم مسكينا فقال أبو بكر أنا فقال من تبع منكم اليوم جنازة فقال أبو بكر أنا فقال من عاد منكم اليوم مريضا فقال أبو بكر أنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة .

أبو بكر رضي الله عنه يارسول الله ما على من يدعى من هذه الأبواب كلها من ضرورة فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها قال نعم وأرجوا أن تكون منهم ، ^(١) هكذا رواه عن مالك موصولا مسندا عن يحيى بن يحيى ومعن بن عيسى وعبد الله بن المبارك : ورواه يحيى بن بكير وعبد الله بن يوسف عن مالك عن ابن شهاب عن حميد مرسلا : وليس هو عند القعنبي لامرسل ولا مسندا : ومعنى قوله : من أنفق زوجين ، يعنى شيئين من نوع واحد نحو درهمين ^(٢) أو دينارين أو فرسين أو قيصين : وكذلك من صلى ركعتين أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين أو صام يومين ونحو ذلك : وإنما أراد والله أعلم أقل التكرار وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر لأن الاثنين أقل الجمع فهذا ^(٣) كالغيث أين وقع نفعه سبحانه الله بلا خلق وصحب الخلق بلا نفس إذا كان مع الله عزل الخلائق من البر ^(٤) وتخل عنهم وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط ^(٥) وتخل عنها فما أغربه بين الناس

(١) أخرجه البخارى في صحيحه في غير موضع : ومسلم والنسائي والترمذى

(٢) ورد في بعض روايات البخارى مفسرا هكذا : من أنفق زوجين في سبيل الله درهمين شاتين .

(٣) اسم الإشارة راجع إلى الصنف الرابع العامل في كل وقت بالافضل في ذلك الوقت .

(٤) أى عزل الخلائق وأبعدهم من الوجود بينه وبين الله .

(٥) أى أخرج نفسه من وسط الخلق ولم يفكر فيها وإنما يفكر في مصالح الناس وجلب النفع ومشاركتهم في سرائرهم وضرائرهم وتخفيف مصائبهم لأنه يرى في ذلك استمرارا لاتصاله بربه ، فهو دائما مع الله يوجد مع الناس بجسمه

وما أشد وحشته منهم وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته
وسكونه إليه :

واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقاً أربعة
وهم في ذلك أربعة أصناف ، الصنف الأول نفاة ^(١) الحكم والتعليل
الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة وصرّف الإرادة فهو لاء عندهم
القيام بها ليس إلا للمجرد الأمر من غير أن يكون سبباً لسعادة في معاش
ولا معاد ولا سبباً لنجاة وإنما القيام بها للمجرد الأمر ومحض المشيئة
كما قالوا في الخلق لم يخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به ولا للحكمة
تعود إليه منه وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسيباتها
وليس في النار سبب للإحراق ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد :
وهكذا الأمر عندهم سواء لا فرق بين الخلق والأمر ولا فرق في نفس
الأمر بين المأمور والمحذور ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه
عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه ولا بالمنهى
عنه صفة تقتضي قبحه ^(٢) . ولهذا الأصل لوازم فاسدة وفروع كثيرة

= ومع ربه بقلبه ، فهو موجود كغير الموجود غريب بين بنى جنسه مستوحش

منهم ، معروف عند الله مؤنس بمناجاته بالقلب وبالعقل الصالح .

(١) نفاة جمع ناف كقضاة جمع قاض . أى الذين ينفون عن أمر الله
لعباده بالطاعة ونهيه بإيham عن المعصية الحكمة والسبب ويفعلون ما أمر
وينتهون عما نهى لمجرد الأمر والنهى :

(٢) لا بد أن يعتقد المؤمن الحكمة في أوامر الله ونواهيه ، فيعتقد أنه
لا يأمر بالعمل إلا للحكمة دنيوية أو أخروية ، ولا ينهى عنه إلا للحكمة

وهؤلاء غالبيتهم لا يحدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها ولهذا يسمون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف أى كلفوا بها ولو سمي مدعى محبة ملك الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفا لم يعد محبالة ، وأول من صدرت عنه هذه المقالة الجعد بن درهم .

الصف الثاني القدريّة (١) النفاة الذين يثبتون نوعا من الحكمة

= دنيوية أو أخروية أو دنيوية وأخروية معا ، وإن كانت حكمة بعض الأوامر والنواهي تخفى علينا لقصر عقولنا عن إدراكها ، ولسنا مكلفين بالوصول الى حكمة كل أمر ونهى ، ولكننا مكلفون باعتقاد الحكمة فى أمر الله ونهيه ، ولو خلت أفعال الله عن الحكمة لكانت عبثا والله تعالى منزّه عن العبث .

(١) اعلم أن أول بدعة ظهرت فى الاسلام هى بدعة التشيع للإمام على كرم الله وجهه وأنه أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان . وبدعة الخوارج ، وهى عدم اعترافهم بأحد الخليفتين على ومعاوية والخروج عن طاعتها ووجوب قتلها . وبدعة القدر ، وهى خلق العبد لأفعاله كلها أو بعضها وأنه يستحق الثواب بعمله الطاعة ويستحق العقاب بعمل المعصية ولا فضل لله فى ذلك بل يجب عليه ، وبدعة الأرجاء ، وهى أن الناس مرجئون الى مشيئة الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم . وأول من تكلم فى القدر معبد الجهنى وهذه البدع ظهرت فى القرن الثانى والصحابة موجودون : وقد أنكروا على أهلها : ثم ظهرت بدعة الاعتزال ولم يزل المسلمون على النهج الأول ولزوم ظاهر السنة وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم الى أن حدثت الفتن بين المسلمين والبنى على أئمة الدين وظهر اختلاف الآراء والميل الى البدع

والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع اليه بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته فعندهم أن العبادات شرعت أثمنا لما يناله العباد من الثواب والنعيم : وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره قالوا ولهذا يجعلها سبحانه وتعالى عوضا كقوله (وَنُودُوا أَنْ تَتْلُوا الْجَنَّةَ أَوْ رُثِمُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٢)) (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

= والآراء وكثرت المسائل والواقعات والرجوع الى العلماء في المهمات : فاشتغلوا بالنظر والاستدلال والاستنباط والنتائج وتمهد القواعد : وإنتاج القضايا والفوائد : وأخذوا في التبويب والتفصيل والترتيب والتأصيل : فأسست فرقة المعتزلة قواعد الخلاف : ونهجت منهج الفرقة والانحراف وكان أول من اعتزل عن مجلس سيد التابعين الحسن البصري وأصل بن عطاء رئيس الطائفة المعتزلة : ومذهب السلف هو المذهب المنصور والحق الثابت المأثور : وأهله هم الفرقة الناجية والطائفة المرحومة التي هي بكل خير فائزة ولكل مكرمة راجية من الشفاعة والورود على الخوض ورؤية الحق وغير ذلك : فذهب السلف حق بين باطلين : وهدى بين ضالين : قال العلامة ابن تيمية : مذهب السلف أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير تحريف ولا تعطيل : ومن غير تكليف ولا تمثيل . فالمعطل يعبد عدما : والممثل يعبد صنما : والمسلم يعبد رب الأرض والسماء

(٢) هذه الآية في سورة الاعراف وورد في سورة الزخرف أيضا آية أخرى مثلها وهي : وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون . وسيدكرها المؤلف بعد ذلك

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وفي الصحيح : إنما هي أعمالكم أحصاها عليكم ثم أوفيكم إياها ، قالوا وقد سماها جزاء أو أجراً وثواباً لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله أى يرجع إليه : قالوا ويدل عليه الموازنة فلو لا تعلق الثواب بالأعمال عوضاً عليها لم يكن للموازنة معنى : وهاتان الطائفتان متقابلتان : فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء ألبتة وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في الطاعة وينعم من أفنى عمره في مخالفته وكلاهما سواء بالنسبة إليه والكل راجع إلى محض المشيئة ، والقدرية أوجبت عليه سبحانه وتعالى رعاية المصالح وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منه الصدقة عليه بلا ثمن فجعلوا تفضله سبحانه وتعالى على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد وإعطائه ما يعطيه أجره على عمله أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة والطائفتان منحرقتان عن الصراط المستقيم وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب : والأعمال الصالحات من توفيق الله وفضله وليست قدراً لجزائه وثوابه بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكراً على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه وتعالى فلو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً ممن أعمالهم : وتأمل قوله تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) مع قوله ﷺ : لن يدخل أحد

منكم الجنة بعمله ،^(١) تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال ولا تنافي بينهما لأن توارد النفي والاثبات ليس على محل واحد فالمنفي بآء الثمنية^(٢) واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال ، رداً على القدرية المجوسية التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المنة . والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي بآء السببية^(٣) رداً على القدرية

(١) الحديث في الصحيحين . ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسدوا ولا يمتنين أحدكم الموت أما محسناً فلعلمه أن يزداد خيراً وأما مسيئاً فلعلمه أن يستتيب ، فذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب بل ثبوتها بالشريعة حتى لو عذب الله تعالى جميع المؤمنين كان عدلاً منه ولكنه أخبر بأنه لا يفعل بل يغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين . وقدرى أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب في ذكر القدر (وفيه) « لو أن الله عذب أهل سمواته وأرضه لعذب بهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم ، الحديث . والله أعلم

(٢) أى الباء التي تجعل ما بعدها ثمناً لما قبلها ، فقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، معناه لا يدخل أحد منكم الجنة وتكون الجنة ثمناً لعمله وأجراً بحيث يجب دفع الثمن إذا عمل العمل

(٣) المراد بآء السببية في القرآن الباء التي تجعل ما بعدها سبباً لما قبلها كالباء في قوله تعالى « أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون » وقوله تعالى « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون » المعنى أن العمل سبب الجنة والله تعالى هو الذي تفضل بإعطاء المسبب وهو الجزاء وهو الذي وفق العاملين

الجبرية الذين يقولون لارتباط بين الأعمال وجزائها ولاهى أسباب لها وإنما غايتها أن تكون أمانة ^(١) :

والسنة النبوية هى أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافى ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها : وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعا من الحق فاتها ارتكبت لأجله نوعا من الباطل بل أنواعا ، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه :

الصنف الثالث الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعِيَّة والبهيمية فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول فتصير قابلة لانتقاش صور المعارف فيها : وهذا يقوله طائفتان : إحداهما من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدَم العالم وعدم الفاعل المختار : والطائفة الثانية من تفلسف من صوفية الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة فانهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد . ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى فاذا حصل لها ذلك بقى متحيرا فى لفظ أوراده والاشتغال بالوارد منها : ومنهم من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها ، وهم صنفان

== للسبب وإن كان لله حق عدم الجزاء على العلى ولكنه لا يفعل .

(١) أى علامة على ما أَرادَه الله من الجزاء لفاعل الخير وليست

سببا فى الجزاء .

أيضاً : أحدهما من يقول بوجوبها حفظاً للقانون وضبطاً للناموس^(١) :
والآخرون يوجبونها حفظاً للوارد وخوفاً من تدرج النفس بمفارقتها
إلى حالها الأولى من البهيمية : فهذه نهاية أقدامهم في حكمة العبادة وما شرعت
لأجله ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق
من هذه الطرق الثلاث أو مجموعها :

والصنف الرابع هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر
والسبب فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبنى على معرفة حقيقة الإلهية
ومعنى كونه سبحانه وتعالى إلهاً أن العبادة موجب الإلهية وأثرها
ومقتضاها وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط
المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة : والاصوات بالسمع : والاحسان
بالرحمة : والإعطاء بالجلود : فعندهم من قام بمعرفتها على نحو الذى
فسرناها به لغة وشرعاً مصدراً ومورداً استقام له معرفة حكمة
العبادات وغايتها به وعلم أنها هى الغاية التى خلقت لها العباد ولها أرسلت
الرسل وأنزلت الكتب وخلقت الجنة والنار : وقد صرح سبحانه
وتعالى بذلك فى قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)
فالعبرة هى التى ما وجدت الخلائق كلها إلا لأجلها كما قال تعالى
(اَتَجَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) أى مهملاً^(٢) : قال الشافعى رحمه

(١) أى للسنة الإلهية التى يجرى عليها الكون

(٢) أى لا يكلف بواجبات ولا ينهى عن محظورات فيكون
كالحيوان الأعجم الذى لم يكلف بشئ :

الله لا يؤمر ولا ينهى : وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب ، وهما تفسيران صحيحان فان الثواب والعقاب مترتبان على الامر والنهى والامر والنهى هو طالب العبادة وإرادتها . وحقيقة العبادة امتثالها : ولهذا قال تعالى (وَيَتَفَكَّرُونَ^(١)) فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) فآخبر الله تعالى أنه خلق السموات والارض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه : فاذا كانت السموات والارض إنما خلقتا لهذا وهو غاية الخلق فكيف يقال إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة أو إن ذلك بمجرد استتجار العمال حتى لا يتكدر عليهم الثواب بالمئة أو بمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد :

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين ما دل عليه صريح الوحي علم أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخاضع له والانقياد لأمره . فأصل العبادة محبة الله بل إفراده تعالى بالمحبة فلا يجب معه سواء وإنما يجب ما يحبه لأجله وفيه كما يجب أنبياءه

(١) وردت هذه الآية في سورة آل عمران في وصف أولى الالباب أى أصحاب العقول الذين يعرفون الله حق معرفته ويتفكرون في خلقه قال تعالى : ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار،

ورسوله وملائكته لأن محبتهم من تمام محبته وليست كمحبة من اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كمحبه : وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته ورسها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند اتباع الأمر والنهي تبين حقيقة العبودية والمحبة : ولهذا جعل سبحانه وتعالى اتباع رسوله ﷺ محلاً (١) عليها وشاهداً لها كما قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله تعالى وشرطاً لمحبة الله لهم ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع : فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول : ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما : ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الإشرak الذي لا يغفره الله : قال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وكل من قدم قول غير الله على قول الله أو حكم به أو حاكم إليه فليس بمن أحبه : لكن قد يشبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قال الرسول ﷺ فيطيعه ويحكم إليه ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك :

(١) أى دليلاً عليها

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ وعرف أن غير من اتبعه أولى به مطلقاً أو في بعض الأمور كمسئلة معينة ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ولا إلى من هو أولى به فهذا يخاف عليه : وكل ما يتعلق به من عدم العلم أو عدم الفهم أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين أو الاحتجاج بالاشباه والنظائر أو بأن ذلك المتقدم كان أعلم مني بمراده ﷺ فهذه كلمات تعللات لا تنفيذ :

هذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم إلا أن ينزع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته وهذا هو داخل تحت الوعيد فإن استحل مع ذلك ثلث (١) من خالفه وقرض (٢) عرضه ودينه بلسانه وانتقل من هذا إلى عقوبته أو السعى في أذاه فهو من الظلمة المعتدين ونواب المفسدين .

واعلم أن العبادة أربع قواعد وهي التحقيق بما يجب الله ورسوله ويرضاه وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع : فاصحاب العبادة حقاً هم أصحابها . فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه وأخبر رسوله عن ربه من أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه وما أشبه ذلك ، وقول اللسان الإخبار عنه بذلك والدعاء اليه والذبح (٣) عنه وتبيين بطلان البدع

(١) أى ذمّه

(٢) أى التكلم فى عرضه ودينه بما يمزقه كما يمزق الفارض المقروض

(٣) أى الدفاع عنه

المخالفة له والقيام بذكره تعالى وتبليغ أمره : وعمل القلب كالحجة له والتوكل عليه والإجابة والخوف والرجاء والإخلاص والصبر على أوامره ونواهيه وإقراره والرضا به وله وعنه والموالاتة فيه والمعاداة فيه والإحيات اليه والطمانينة ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أكد من فرض أعمال الجوارح ومستحبها إلى الله تعالى أحب من مستحب أعمال الجوارح . وأما أعمال الجوارح فكالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك : فقول العبد في صلواته (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها : وقوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) طلب الإعانة عليها والتوفيق لها : وقوله (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) متضمن للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى والله الموفق بمنه وكرمه والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ووارثيه وحزبه .

تم الكتاب والحمد لله أولا وآخرا

(فائدة)

قد تقدم للمؤلف المقرئى كلام فى حلق الرأس وأجمل القول فى ذلك ولما كان الحكم فى ذاته فيه تفصيل أحببنا أن نذكر هنا ما أورده الحافظ العلامة شمس الدين ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى هدى خير العباد : قال فى كتاب الطب من الجزء الثانى فى علاج القمل الذى فى الرأس وإزالته * وحلق الرأس ثلاثة أنواع أحدها نسك وقربة والثانى بدعة وشرك والثالث حاجة ودواء فالأول الحلق فى أحد النسكين الحج والعمرة ، والثانى حلق الرأس لغير الله سبحانه وتعالى كما يخلعها المريدون لشييوخهم فيقول أحدهم أنا خلعت رأسى لفلان وأنت خلقت لفلان وهذا بمنزلة أن يقول سجدت لفلان فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل ولهذا كان من تمام الحج حتى إنه عند الشافعى رحمه الله تعالى ركن من أركانه لا يتم إلا به فإن وضع النواصى بين يدى ربه خضوع لعظمته وتذلل لعزته وهو من أبلغ أنواع العبودية : ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه : فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة فارادوا من مريدتهم أن يتعبدوا لهم فزینوا لهم حلق رؤوسهم لهم كما زینوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه وقالوا هو وضع الرأس بين يدى الشيخ : ولعمرك الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه وتعالى وزینوا لهم أن يندروا لهم ويتوبوا لهم ويحلفوا بأسمائهم :

وهذا هو اتخاذهم أرباباً من دون الله تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاءَ نِيْنٍ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا
أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وأشرف العبودية عبودية
الصلاة وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة فأخذ الشيوخ
منها أشرف ما فيها وهو السجود : وأخذ المتشبهون بالعلماء الركوع
فاذا أتى بعضهم بعضاً ركع له كما يركع المصلى لربه سواء وأخذ الجبابرة
منهم القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رؤسهم عبودية لهم وهم جلوس ،
وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل فتعاطيها
مخالفة صريحة له . فنهى عن السجود لغير الله وقال : لا ينبغي لأحد أن
يسجد لأحد ، وأنكر على معاذ لما سجد له وقال : مه (١) ، وتحريم
هذا معلوم من دينه ضرورة ، ونجوز من جوزه لغير الله مراغمة لله
ورسوله وهو من أبلغ أنواع العبودية فاذا جوز هذا المشرك هذا
النوع اليسير فقد جوز عبودية غير الله : وقد صح أنه قيل له : الرجل يلقى
أخاه أينحنى له قال لا قال أيلزمه ويقبله قال لا قيل أيسأله قال نعم ،
وأيسأه فالانحناء عند التحية سجود ، ومنه قوله تعالى (وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا) أى منحنين وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه ،

(١) كلمة زجر بمعنى لا تفعل

وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس كما يعظم الأعاجم بعضها بعضها^(١) حتى منع ذلك في الصلاة وأمرهم إذا صلى جالسا أن يصلوا جلوسا وهم أصحاب لا عذر لهم لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس^(٢) مع أن قيامهم لله فكيف إذا كان القيام تعظيما وعبودية لغيره سبحانه وتعالى :

والمقصود أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه وتعالى وأشركت فيها من تعظمه من الخلق فسجدت لغير الله وركعت له وقامت بين يديه قيام الصلاة وحلفت بغيره ونذرت لغيره وحلقت لغيره وذبحت لغيره وطافت بغير بيته وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة كما يعظم الخالق بل أشد وسوءت من تعبدته من المخلوقين رب العالمين .

هؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل وهم الذين يبرهنهم يعدلون وهم

(١) الحديث رواه أبو داود وابن ماجه : قال الحافظ عبد العظيم المنذرى واسناده حسن أبو غالب فيه واسمه حذور ويقال نافع ويقال سعيد ابن الحذور فيه كلام طويل ، والغالب عليه التوثيق وقد صحح له الترمذى وغيره : اه : ورواه أيضا الترمذى في الشئانل : وفي مشروعية القيام للناس خلاف والصحيح التفصيل والجمع بين الأحاديث . وقد ألف الامام النووي في ذلك رسالة وذكرها صاحب المدخل في كتابه وتعقبه في كثير منها ورد كلامه في جواز القيام فعليك بمطالعة فانه يغنيك :

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير عن جابر ، أنهم لما صلوا خلفه قعودا قال فلما سلم قال ان كنتم انما تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ،

الذين يقولون وهم في النار مع آلهتهم يختصمون (تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَنَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اِذْ نُسَوِّبُكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ) وهم الذين قال فيهم (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اُنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا اَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ) وهذا كله من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به . والله أعلم .

(تنبيه)

سقط في صفحة ٤٨ في التعليق رقم ٢ بعد كلمة سعد ، ورواه ، فيكون نظم الكلام هكذا ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ،

فهرس تجريد التوحيد

صفحة	
٢	مقدمة المعلق
٤	مقدمة المؤلف
٥	معنى قوله تعالى رب العالمين
٦	التوحيد له قشران
٧	لباب التوحيد
٨	الله هو الاسم الجامع لجميع معاني الاسماء الحسنی
٩	معنى قوله تعالى د ملك الناس إله الناس ،
١٠	سحر النبي ﷺ والخلاف في جواز وقوعه
١٢	سر كون المعوذتين إحدى عشرة آية
١٣	حقيقة قول القدرية المجوسية
١٤	شرك الأمم كله نوعان
١٥	التسوية بين الله وغيره في الحب شرك
١٦	مذهب المجوس والفلاسفة المعطلين
١٧	القدريّة مجوس هذه الأمة
١٨	لعن رسول الله ﷺ من اتخذ القبور مساجد
١٩	د د د زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج
٢٠	زيارة القبور على ثلاثة أقسام
٢١	الحلف بغير الله شرك
٢٣	الشرك في الارادات والنيات
٢٤	إن الله لا يغفر أن يشرك به

- ٢٥ التعطيل أصل الشرك
- ٢٦ أنواع الشرك
- ٢٧ السكال المطلق من خصائص الالهية
- ٢٨ الشرك بالنسبة بالله
- ٢٩ حرمة التصوير وأن المصورين من أشد الناس عذابا يوم القيامة
- ٣٠ حكم من يتسمى ملك الملوك وحاكم الحكام الخ
- ٣١ حكم من ظن أن الله لا يجيبه إلا بواسطة
- ٣٢ من اتخذ الله واسطة فقد ظن به ظن سوء
- ٣٣ أصل الضلال راجع إلى شيئين
- ٣٤ من لم يقدروا الله حق قدره
- ٣٦ كل من عبد مع الله غيره عبد شيطاننا
- ٣٧ الناس في عبادة الله والاستعانة به أقسام
- ٣٨ من سأل الله العون على غير الطاعات يبعد عن مرضاة الله
- ٣٩ قلة الرزق ليست لهوان العبد على ربه وكثرته ليست لكرامته عليه
- ٤٠ من له نوع عبادة بلا استعانة
- ٤١ حقيقة الاستعانة بالله عملا
- ٤٢ متابعة الرسول وإخلاص العبودية أصل عبادة الله
- ٤٣ من لإخلاص له ولا متابعة
- ٤٤ من يتبع ويعمل ولكن عمله اغير الله
- ٤٥ أهل مقام ، إياك نعبد ، لهم في أفضل العبادة أربع طرق
- ٤٦ بيان فساد قول العوام ، الثواب على قدر المشقة ،
- ٤٧ من يرى أن أفضل العبادات دوام ذكر الله بالقلب

- ٤٨ من يرى أن أفضل العبادات نفع الناس
 ٤٩ متى يبقى ثواب العبادة بعد الموت ومتى ينقطع
 ٥٠ من يرى أن أفضل العبادات شغل كل وقت بما هو مقتضاه
 ٥٣ ثواب من أنفق زوجين في سبيل الله
 ٥٤ الناس في حكمة العبادة ومنفعتها طرق أربع
 ٥٥ القدرة الذين يثبتون نوعاً من الحكمة لا يرجع الى الرب
 ٥٧ القدرة أوجبت على الله رعاية المصالح
 ٥٨ الأعمال أسباب للجنة لا أمان لها
 ٥٩ الذين زعموا أن حكمة العبادة رياضة النفوس
 ٦٠ العبادة موجب الإلهية ومقتضاها
 ٦١ أصل العبادة محبة الله بل لإفراده بالمحبة
 ٦٢ لإخلاص العبادة أن يكون الله ورسوله أحب مما سواهما
 ٦٣ العبادة أربع قواعد
 ٦٤ فائدة : في حكم خلق الرأس لله ولغيره
 ٦٨ تنبيه

(تم الفهرس)